إستراتجية الحجاج التعليمي عند الشيخ " البشير الإبراهيمي " مقال (الطلاق)أنموذجا الجزء الأول

الأستاذ : حمدي منصور جودي
قسم الأدب العربي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة محمد خيضر–بسكرة (الجزائر)

ملخص:

البحث إستراتيجية الحجاج التعليمي وأهم تقنيات المحاججة في واحد من مقالات الشيخ" البشير الإبراهيمي"، وفيه يعالج أبرز المشاكل الاجتماعية التي يتخبّط فيها الكثير من الناس، متمثّلة في كثرة الطلاق وتساهل الناس فيه، بسبب الجهل وغياب التوعية. ويسعى هذا البحث إلى الكشف عن هذه الإستراتيجية الحجاجية ، من خلال دراسة تتمّ في جزأين ؛ يتطرّق الجزء الأول فيها إلى مفهوم الحجاج وإلى مكوّناته وأنواعه في ذلك النص، أما الجزء الثاني فيدرس أهم تقنيات المحاججة المعتمدة فيه

Résume

Cette étude met en évidence la stratégie de l'argumentation didactique et les techniques les plus importants dans l'un des essais du Cheikh " BACHIR EL-IBRAHIMI " . Dans son essai il traite les problèmes de divorce dues à l'ignorance et le manque de sensibilisation par les individus de la société .

L'étude se base sur deux parties; la première traite la notion de l'argumentation ses composantes et ses types. La deuxième partie traite les techniques argumentatives adaptées dans le texte du Cheikh " EL-IBRAHIMI " .

من مشاكلنا الاجتماعية : الـــطـــــــــلاق[1]

الطلاق حلّ عقدة، وبتّ حبال، وتمزيق شمل، وزيال خليط، وانفضاض سامر، فيه كلّ ما في هذه المركبات الإضافية التي استعملها شعراء العرب، وجرت في آدابهم العاطفية مجرى الأمثال، من التياع وحرارة، وحسرة ومرارة، ويزيد عليها جميعًا بمعنى آخر، وهو ما يصحبه من الحقد والبغض والتألّم والتظلّم .

لهذه الملابسات التي هي من مقتضيات الفطر السليمة، والطباع الرقيقة، شرعه الإسلام مقيدا بقيود فطرية حكيمة، وقيود شرعية قويمة، اعتمد في تنفيذها بعد فهم المراد منها على إيمان المؤمن، وشرع له من المخففات ما يهوّن وقعه كالتمتيع ومدّ الأمل بالمراجعة، وتوسيع العصمة إلى الثلاث، تُمكّن الفيئة إلى العشرة؛ وما وصْفُه في القرآن بالسراح الجميل والتسريح بالإحسان، إلا تلطيف إلهي في أسلوب معجّز يبعث في النفوس المؤمنة نفحات تُلطّف وما تزال تلطف من غلظ الإحساس وعرام الحيوانية حتى يصير الطلاق " عملية بلا ألم " .

والزواج عقد بين قلبين، ووصل بين نفسين، ومزج بين روحين– وفي الأخير – تقريب بين جسمين؛ فإذا تراخت عُراه بين القلبين ضاعت حكمة الله في السكون والرحمة والعطف، وهنا يدخل العقل مصلحا بلغة المصلحة والتعاون والإحسان، وشفاعة النسل (إن كان)، فإذا زاغت الفطرة من أحد الزوجين عن محورها، أو طغت الغرائز الحيوانية على الفضائل الإنسانية في أحدهما أو كليهما، ولم يقم العقل وحده أو مع الحكمين، بإصلاح ذات البين، فالله أرحم من أن يكلف عباده تحمُّل هذا النوع من العذاب النفسي، وهو الجمع بين

قلبين لم يألفا، وطبعين لم يتَّحدا، وروحين لم يتعارفا؛ لذلك شرع لهما الطلاق ليستريح إليه من ضاق ذرعا بصاحبه ضيقا معقولا بدواعيه وأسبابه؛ ولما كان من بعض أسباب الطلاق ما يزول فتتجاوب النفسان من جديد، وتتراجعان الحنين إلى العشرة، شرع الإسلام تلك الملطفات التي ذكرنا بعضها، والتي تُبقي على أصل الصّلة، وتحفظ "خط الرجعة ".

جَهِلَ المسلمون حقائق دينهم، وجهلوا الحِكَمَ المنطوية تحت أحكامه، ومن أسباب ذلك جفاف الفقه عند الفقهاء لأخذهم إياه من كتب تُعلِّمُ الأحكام ولا تُبيِّنُ الحِكَمَ، فأثر ذلك في نفوس المتفقهة – وهم وهم مرجع العامة في سياسة الإفتاء – آثارا سيّئة، منها اعتبار تلك الأحكام تعبّدية تُحفظ ألفاظها، ولا يتحرّك الفِكرُ في التماس عِللها، وطَلَبِ حِكَمِها، وتَعَرُّفِ مقاصد الإسلام منها، وتَصَفُّحِ وجوه المصلحة والمفسدة فيها .

أنا لم أسمع مدة دراستي للفقه في بعض تلك الكتب إلا كلمتين تثيران في النفس شيئا من الإحساس الحي، وتنبِّهان على خيال من الحكمة، وتبثّان في المشاعر بصيصا من النور، إحداهما في باب النكاح، وهي قولهم :"النكاح مبنيّ على المُكارمة"، والثانية في باب الطلاق، وهي تناقلهم لأثر "أبغض الحلال إلى الله الطلاق" .

ولو أن فقهاءنا أخذوا الفقه من القرآن، ومن السنّة القولية والفعلية، ومن عمل السلف، أو من كتب العلماء المستقلّين المستدلين التي تقرن المسائل بأدلّتها، وتبيّن حكمة الشّارع منها، لكان فقههم أكمل، وآثاره الحسنة في نفوسهم أظهر، ولكانت سلطتهم على المستفتين من العامة أمتن وأنفذ، ويدهم في تربيتهم وترويضهم على الاستقامة في الدين أعلى .

إنّ من يأخذ فقه الطلاق من آية : { الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ }،ومما بعدها من الآيات الآمرة بالوقوف عند حدود الله، الناهية عن تعديها، أو من آية :{ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ }؛ أومن آية الحَكَمين ووعد الله بالتوفيق عند الإصلاح، وبالإغناء من واسع فضله عند التفرّق؛ أو من آية تخيير النبيّ أزواجه بين حالين: أحدهما التمتيع والسراح الجميل، مَن أخذَ فقه الطلاق من هذا المنبع العذب يعلم أيَّ حِكَمٍ مبثوثة تحت كل كلمة وكل جملة، ومن تفقّه هذا الفقه ونشره في الناس يَبْعُد جدا أن يتلاعب بتلك العقدة الإلهية التي عقدها الله بين الزوجين، فيضعها في موضعها المعروف بين المسلمين الآن .

هذا الجمود في الفقه والفقهاء، وذلك الخلاف الواصل بين طرفي الإباحة والحظر في المسألة الواحدة، هما اللذان سهّلا على المسلمين تعدّي حدود الله في الطلاق، وأفضيا بهم إلى هذه الفوضى الفاشية في البيوت، وإلى ارتفاع الثقة بين الأزواج والزوجات، وزاد الطين بَلَّةً وضع منحرف لمكان الزوجة من زوجها، حتى أصبح متخلخلا متزلزلا لا استقرار له، وما جاء هذا التخلخل إلا من سوء فهم من الرجل، انبنى عليه سوء تصرّف منه في الحق الذي خَوَّلَهُ الشّارع، وهو أنه يملك العصمة، وما جاء سوء الفهم إلا من سوء التفهيم من الفقيه؛ فالفقيه لا يعرف إلا أن العصمة بيد الزوج، لأنه لا يجد في كتب الفقه إلا هذا، وهو حقٌّ في أصل الشريعة، ولكن الإسلام لا يعطي هذه الحقوق أو هذه الامتيازات إلا للمسلم الصحيح الإسلام، القويّ الإيمان. فهو يَكِلُ إليه عهدا ويستحفظه على أمانة، اعتمادا على رشده، وثقة بإيمانه، أما إعطاء هذه الامتيازات إلى الجاهلين المتحلّلين من قيود الإسلام فهو لا يقلّ شناعة وسوء أثر عن إعطاء السلاح للمجانين .

يخرج الرجل إلى السوق، أو يجلس في المقهى، ويختلف مع آخر في شأن جليل أو حقير فيحلف أحدهما أو كلاهما بالطلاق حانثا فتكون النتيجة خراب بيت، وتمزيق أسرة، وتشريد بنين. ويتناقش آخر مع صهره في زيارة أو استزارة فيحلف أحدهما أو كلاهما بالطلاق، وتكون النتيجة تقطيع أرحام، وتكوين فتنة. ويتنازع اثنان الحديث في السياسة أو التفضيل بين شخصين أو في الغيم والصحو، فتجري ألفاظ الطلاق متناثرة متعددة كأنها لازمة الحديث، وكأن الكثير منهم لم يتزوج إلا ليجعل الزوجة أداة يمين، أو ليصدّقه الناس حين يحلف لعلمهم أنه متزوّج. وكثيرا ما تطلق الزوجة بهذه الأيمان والالتزامات العابثة، وهي لا تعلم من ذلك شيئا ولم تتسبّب فيه. وكثيرا ما تكون آمنة في بيتها سعيدة بزوجيتها، فتفاجأ بالطلاق من زوج أحمق مأفون، لخلاف شجر بينه وبين جار أو بائع أو مشتر على أتفه الأسباب .

أيها المسلمون : إن عقدة الزواج عقدة مؤكدة، يحافظ عليها الأحرار، ويتلاعب بها الفجّار، وإن العصمة امتياز لرجالكم، ما لم تطغوا فيه وتظلموا، فإذا طغيتم فيه وجُرتم عن القصد، كما هي حالتكم اليوم، انتزعه منكم القضاء الإسلامي العادل لو كان، فإذا لم يكن عاقبكم الله بعذاب الخزي. ما هذه الفوضى وهذا الاضطراب إلا عقوبة من الله لكم، وغيرة منه على أحكامه أن تتولوها بالهوى المطاع، والجهل القالب للأوضاع. أيها المسلمون: إنه لا أشقى من ابن المطلقة، وإن أباه يُشقيه أولا، ويَشقى به أخيرا، فإذا رُبِيَ في حضن أمّه المطلقة شَقِيَ ببعده عن أبيه، وشَقِيَ أبوه بما تغرسه أمّه في نفسه من بغض له وحقد عليه. إن الأمّة لا تنعم بأطفالها صغارا، ولا تنتفع بهم كبارا، إلا إذا نشأوا متقلبين في أحضان الآباء والأمهات، متلقّين لدروس العطف والحنان من قلبين متعاطفين، لا من قلب واحد.

ليت شعري أيدري المتساهلون في الطلاق ماذا جنوا على أنفسهم وعلى أبنائهم وعلى أمّتهم ؟ .

تمهيـــــد :

يرى " دي بوجراند" أن التقسيمات المعتادة للجمل لا تمكّن من تصنيف النصوص "بوصفها وقائع في سياق التفاعل الاتصالي"[2]، فهي تقسيمات بسيطة لا تعدو أن تكون إحصاء للكلم وقياسا للجمل من حيث الطول أو التركيب. كما يرى أن دراسة النماذج اللغوية " Typologie " وتحديد نوع النص يرتكز على مجموعة من الاعتبارات ترتبط بالنص، على أساس مفهوم (مراكز الضبط – centre de control) في عالم النص، وما يقابلها في ظاهر النص. ثم ربط هذه المقابلة بالسياق المحيط بهذا النص، من خلال أنماط المعلومات المختزنة فيه، ليصل إلى غلبة نمط معين؛ و"هذه الغلبة النسبية ذات أثر قوي في أولويات الاختيار والترتيب وبدائل الخطط أثناء إنتاج النص و صياغته"[3]. ويتضح هذا الأثر في مجموعة خطوط تبرز الربط القائم بين عالم النص و ما يحمله من تصورات وقضايا، وبين ما ينعكس على مستوى ظاهر النص باستعمالات لغوية معينة، تجسد تلك التصورات والقضايا في مختلف السياقات التواصلية.

ولقد كان للبلاغة الحديثة دور كبير في تحديد أنماط النصوص، وبخاصة النص الحجاجي ومدى أهميته أثناء التخاطب، فأصبح ميدان الحجاج مجالا واسعا للبحث والدراسة، لارتباطه بعلوم كثيرة منها: علوم اللغة والفلسفة والمنطق. وسعى فيه الباحثون إلى تشكيل نظرية خاصة بالحجاج، تستمد حدودها ووظائفها "من مرجعية خطابية محددة، ومن خصوصية الحقل التواصلي الذي يندمج في استراتيجياته الفردية والجماعية"[4]، وهذه المرجعية الخطابية كانت

سببا في تنوّع مضامين الحجاج، ولهذا نجد "حجاجا خطابيا (لسانيا) وحجاجا خطابيا (بلاغيا) وآخر قضائيا أو سياسيا أو فلسفيا"[5] . ومن هذا التعدد كثرت التعريفات حول مفهوم الحجاج؛ إذ "دارت حول عناصر موضوعية وبنائية ووظيفية شتى"[6] .

1- تعريف الحجاج : " ARGUMENTATION "

1- أ - المعنى اللغوي للحجاج : دارت معاني الحجاج حول مادة (ح ، ج ، ج) في المعاجم اللغوية، ومنها: "الحجة: البرهان، وقيل الحجة ما دُوفِعَ به الخصم، والحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة(..)التّحاج: التخاصم. الاحتجاج من احتجَّ بالشيء أي اتّخذه حجة(..)والحجة الدليل والبرهان. وأحُجُّ خصمي أي أغلُبه بالحجة"[7]، فمن خلال هذه المعاني المعجمية فإن الحجاج يدور حول: التخاصم/التنازع/التغالب/استعمال الوسيلة المتمثلة في الدليل والبرهان. وبهذا فإن المحاجِج يشترك مع متلقي الحجاج في نشاط له طبيعة فكرية تواصلية، يعمد فيه إلى استعمال الدليل والبرهان لغاية محددة ومقصودة لذاتها أثناء الحجاج.

1- ب - المعنى الاصطلاحي للحجاج : يعدّ الحجاج إستراتيجية لغوية، تكتسب بعدها من الأحوال المصاحبة للخطاب، على أساس أن اللغة " نشاط كلامي يتحقق في الواقع وفق معطيات معينة من السياق"[8]، فالمتكلم أثناء العملية التخاطبية ينقل تصوراته ومدركاته الموجودة في واقعه إلى المستمع، قاصدا بذلك التبليغ أو الإخبار أو التأثير في هذا المستمع. وبالتالي يعمد هذا المتكلم إلى إقناع الطرف الآخر، أو التغيير في بعض معارفه وأفكاره، وبخاصة ما يظهر فيها اختلاف بينهما، فيستعمل خطابا حجاجيا لتلك الغاية؛ إذ "الحجاج لا

ينحصر في استعمالات خطابية ظرفية، وإنما هو بعد ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق"[9]، هذا التلازم هو الموجّه الأساسي لكل هدف من أهداف التواصل، مما يترتب عن ذلك أن كل خطاب موجّه إلى الطرف الآخر و"يهدف إلى الإقناع، يكون له بالضرورة بعد حجاجي"[10].

وعلى هذا الأساس فإن الحجاج "جنس خاص من الخطاب، يبنى على قضية أو فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا، قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية "[11].

إن القضية أو الفرضية الخلافية التي تكون بين المتكلم والمستمع هي المحور الرئيس الذي تدور حوله العملية التخاطبية، فحضور الحجاج داخل الخطاب مردُّه إلى دور المتلقي في قبول ما يوجهه إليه المتكلم. وإذا ما تعلق الأمر بنقل المدركات والمعلومات الحقيقية التي يمكن أن تدرج ضمن البديهيات أو المسلمات، فإن المتكلم لا يجنح إلى التبرير أو التدعيم، ولكن قد يجعل من تلك البديهيات والمسلمات قاعدة لتبرير دعواه. فالحجاج ينطلق مما هو بديهي ومعروف ولا خلاف فيه بين المتكلم والمستمع، لتبنى على أساسه دعامات مقاصد المتكلم المحاجِج؛ وبهذا فإن "الخطاب الحجاجي موجّه للتأثير على أراء وسلوكات المخاطَب أو المستمع، وذلك بجعل أيّ قول مدعَّم صالحا أو مقبولا كنتيجة، بمختلف الوسائل"[12]، وبخاصة المنطقية في ربط المسلمات والبديهيات بالتبريرات والتدعيمات التي يستعملها المحاجِج أثناء خطابه، قصد استمالة المستمع وإقناعه.

إن هذه التبريرات والتدعيمات تمثل مجموع الأدلة التي يقدمها المحاجِج لطرح رأيه أو دعواه، وليبني على وفقها النتيجة المقصودة. إلا أن هذه الأدلة التي يقدمها المحاجِج "ليس من شأنها أن تكون حاسمة فاصلة فيما تثبت أو تنفي"[13]، فالنتائج المتوصل إليها من كل خطاب حجاجي ليست يقينية لا تقبل الشك؛ كما أن المستمع بإمكانه رفض هذا الحجاج، وحتى الردّ عليه بالمثل (حجاج عكسي). وهذا واحد من الفروق الموجودة بين الحجاج والبرهان والاستنتاج؛ ففي الحجاج يترك المجال للمتلقي في"استخلاص النتائج وربط الأمور بعضها ببعض، على حسب مستواه ومدى استيعابه للحجج المستعملة من قبل المتكلم"[14]، والمنزلة التي يحتلها هذا المتكلم عنده، ومدى تعلق موضوع الحجاج به، وردود أفعاله الممكنة تجاه مجموع الأدلة المقدمة له. فغاية الحجاج "ليست الصدق الدقيق ولا البرهنة القاطعة وإنما هي الإفحام والإقناع"[15]. أما البرهان والاستنتاج فإن نتائجهما في غالب الأحوال تأخذ صبغة الموضوعية، التي توجب الإلزام على المتلقي، فهي بذلك أقرب إلى المنطق الرياضي الذي يسعى إلى اليقينية العلمية القطعية.

وقد اعتبر"بيرلمان Perelman" أن الاستمالة والإقناع في الخطاب الحجاجي"تتحقق في الأساس باستدلال منطقي قابل للاختيار من قبل المتلقي، ليأتي اختياره اختيارا واعيا وعاقلا"[16]، هدفه إنساني يتمثل في" تحقيق الحرية الإنسانية من حيث هي اختيار عاقل"[17] بالنسبة للمتلقي.

مكونات الحجاج : ينبني الحجاج في شكله العام على مكونات أساسية هي[18]:

1- الدعوى : تمثل نتيجة الحجاج، وهي مراد المتكلم ومقصده من حجاجه،

والغاية منها التأثير واستمالة المتلقي لقبول التصورات والمدركات، سواء بطريقة صريحة أو ضمنية تلميحية يستنتجها المتلقي.

2- **المقدمات:** تمثل معطيات الحجاج، وهي مجموعة المسلمات والبديهيات التي يؤسس المتكلم على منوالها حجاجه، وترتبط بالنتيجة ارتباطا منطقيا.

3- **التبرير :** يمثل بيان البرهنة على مدى تطابق وصلاحية المقدمات للنتيجة.

4- **الدعامة(التدعيم):** الأدلة المستعملة لتقوية النتيجة عند المتلقي بهدف تقبُّلها.

5- **مؤشر الحال** : يمثل مجموع التعبيرات اللغوية التي تظهر مدى قابلية النتيجة للتطبيق، نحو: من الممكن – من المحتمل – يرجح ...

6- **التحفظات والاحتياطات** : ما يضعه المحاجِج في حسبانه مسبقا، لردود أفعال المتلقي تجاه النتيجة.

هذه المكونات الأساسية للشكل العام للحجاج" تمثل الناحية المثالية (لبناء حجاج)، لأننا نجد في الواقع تداخلا بين المراحل في التقديم أو الـتأخير، وذلك حسب الإستراتيجية الحجاجية"[19] التي يعتمدها المحاجِج، وعلى حسب ما يتطلبه خطابه، فقد ينطلق من الدعوى وقد يؤخرها، وقد يجعل دعامة حجاجه في آخر ما يتلفظ به أثناء الخطاب، وقد يعمد إلى الاحتياطات والتحفظات، أوقد لا يستعملها تبعا لحال المتلقي.

2 – أنواع الحجاج :

لقد تعددت المقاربات المتعلقة بتحديد جنس الخطاب، وأنواع النصوص بما فيها الحجاجي، إلا أننا سنتعرض في هذا الصدد إلى زاويتين اثنتين لتحديد نوع الحجاج؛ الأولى متعلقة بشكل بناء الحجاج في حد ذاته، أما الثانية فترتبط بنمط وطبيعة الحوار الذي يبنى عليه الحجاج والكيفية التي يحدث بها في مختلف

السياقات، على اعتبار أن الحجاج مرتبط بمجالات كثيرة كالفلسفة والقضاء والسياسية ...

3- أ- من حيث شكل بناء الحجاج : يميَّز في هذا الشأن نوعان اثنان [20] هما:

1- النوع الأول : عند الدفاع عن أطروحة أو قضية ما، يكون الحجاج في شكله العام كالآتي :

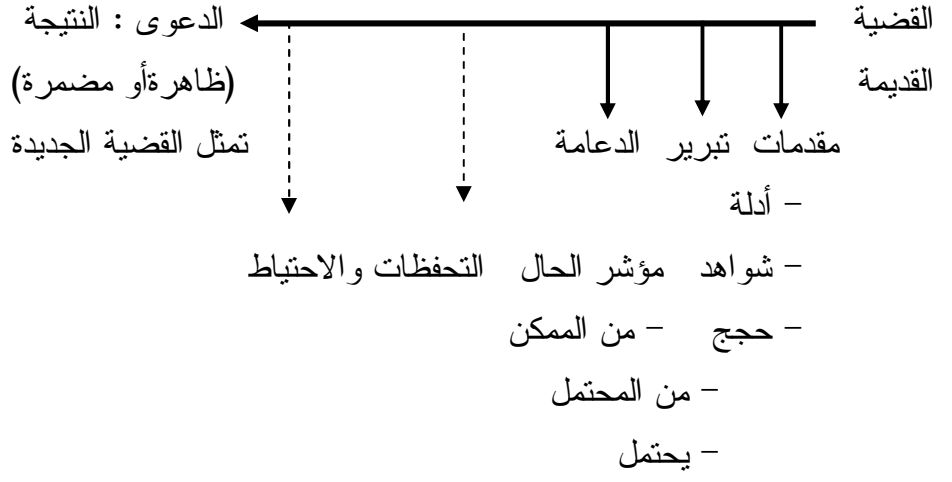

وبالنظر إلى نص الشيخ " الإبراهيمي " - محل الدراسة والتطبيق - نجد صورة هذا النوع الأول، فعند قوله:" الطلاق حل عقدة، وبتّ حبال، وتمزيق شمل،(...)، حتى يصير الطلاق عملية بلا ألم"، يمكن تصوّره وفق مكونات الحجاج على هذا المنوال :

القضية القديمة ← الطلاق حل وبت وتمزيق .

مقدمات ← يصحب الطلاق الحقد والبغض والتألم والتظلم.

تدعيم ←
- قيده الإسلام بقيود فطرية وقيود شرعية.
- شرع له مخففات تهون أمره.
- وصفه بالسراج الجميل والتسريح بالإحسان.

نتيجة ← يصبح الطلاق عملية بلا ألم أو تألّم.

وعند قوله: "هذا الجمود في الفقه، وذلك الخلاف الواصل بين طرفي الإباحة والحظر في المسألة الواحدة، (...)، فهو لا يقلّ شناعة وسوء أثر عن إعطاء السلاح للمجانين". يبنى سلم الحجاج فيه على هذا النحو:

مقدمات ← جمود الفقه وخلاف الفقهاء في المسألة الواحدة.

نتيجة01 ← سهل على المسلمين تعدي حدود الله وزعزع الثقة الزوجية.

تدعيم ←
- سوء الفهم من الرجل وسوء تصرفه في العصمة.
- سوء التفهيم من الفقيه المعتمد على تلك الكتب.

مؤشر الحال : (لكنّ).

احتياط وتحفظ ← الإسلام لا يعطي امتياز العصمة إلا للمسلم الصحيح.

نتيجة02 ← إعطاء هذا الامتياز إلى الجاهل المتحلل من الدين لا يقل شناعة عن إعطاء السلاح للمجانين. (معاكسة للنتيجة01)

والملاحظ من خلال المثالين السابقين، أن مكونات الحجاج في المثال الأول قد طابقت الشكل العام المثالي للحجاج ، أما في المثال الثاني فقد حدث فيه تقديم

وتأخير بين المكونات، وهذا راجع لمقتضيات منها المحاجِج وطبيعة القضية المطروحة، وهذا ما أشرنا إليه آنفا.

2- النوع الثاني : عند التطرق لأطروحتين أو لقضيتين تمثلان إشكالا، ويبنى منهما حجاج على أساس (مع / أو ضد) إحدى القضيتين على النحو التالي:

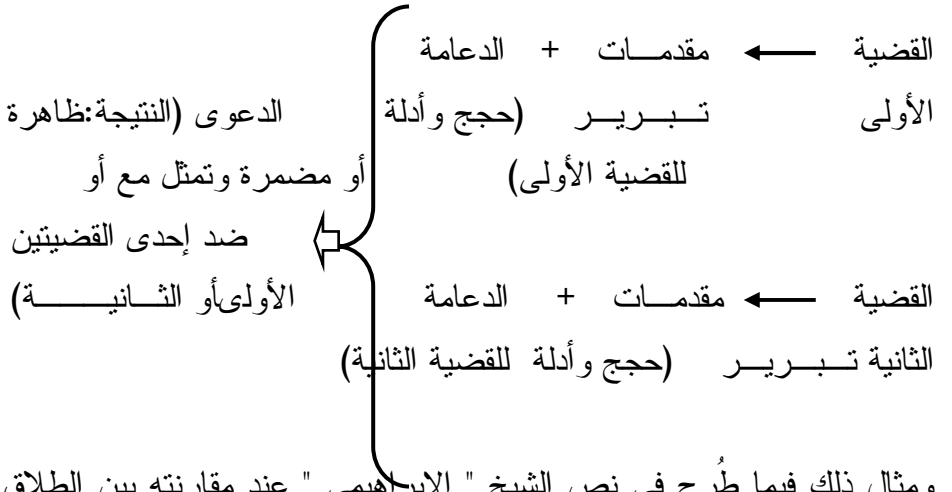

ومثال ذلك فيما طُرِح في نص الشيخ " الإبراهيمي " عند مقارنته بين الطلاق والزواج؛ ففي قوله:" الطلاق حلّ عقدة، وبتّ حبال، وتمزيق شمل(...)ما يصحبه من الحقد والبغض والتّألّم والتظلّم"، وقوله:" والزواج عقد بين قلبين، ووصل بين نفسين، ومزج بين روحين(..) تقريب بين جسمين". نجد أن شكل مكونات الحجاج في هذين المثالين قد انبنى وفق الشكل الآتي:

القضية الأولى الطلاق	مقدمات ← – حلّ عقدة – بتّ حبال – تمزيق شمل	الدعامة ← يصحبه الحقد والبغض والتألّم والتظلّم	الدعوى: النتيجة مضمرة (تمثل الابتعاد عن الطلاق والتمسك بالزواج بتحكيم العقل وبالحكمين للإصلاح عند النزاع والشقاق)
القضية الثانية الزواج	مقدمات ← – عقد بين قلبين – وصل بين نفسين – مزج بين روحين	الدعامة ← فيه سكون ورحمة وعطف وتعاون وإحسان وشفاعة نسل	

3- ب – من حيث طبيعة الحوار : يتّسم الخطاب الحجاجي عن بقية أنواع الخطاب الأخرى بوجود ملامح محددة، تظهر مسير الحجاج داخل الخطاب أو خارجه، سواء أكان الخطاب شفهيا أم كان مكتوبا، وتحديد مكونات الحجاج تبرز شكل بنائه داخل هذا الخطاب؛ انطلاقا من قضية خلاف تكون بين طرفي الخطاب، تشكِّل محوره ومحركه الأساسي أثناء العملية التخاطبية، مما يدفع كل طرف إلى إقناع الآخر والتأثير فيه، على أساس ما يقدمه كل طرف من حجج للنتيجة المقصودة.

غير أن شكل الحجاج هذا، يُتبع بعوامل أخرى تساعد على استكمال آلية التأثير في المتلقي، منها السياق وطبيعة المتلقي في حد ذاته، والقوانين التي يفرضها الخطاب نفسه. وانطلاقا من " مبدأ التعاون" [21] المشترك الذي تفرضه

طبيعة استمرارية الخطاب بين الطرفين يقتضي الأمر وجود تفاهم بينهما حول قدر معين من المعلومات والمعطيات والمفاهيم، التي من شأنها أن تجعل المتلقي"متلقيا إيجابيا يتلقى ما يتلقاه ويفكر فيه، ثم يردّ ويناقش ويفند ويدعّم، لينتقل من موقع المتلقي إلى موقع الإرسال، وينتقل المرسل من موقع الإرسال إلى موقع المتلقي"[22]. هذا التبادل في الأدوار يبرز خاصية الحوار في الخطاب وقيمته، وبخاصة أثناء الحجاج؛ لما له من دور واضح في شدّ انتباه المتلقي، واستحضار تركيزه، وتقدير ردود أفعاله تجاه ما يتلقاه، لذا فإن طبيعة الحجاج طبيعة حوارية تخاطبية.

إلا أن شكل الحوار ظاهر وبارز وجلي أثناء المشافهة، أما في النص المكتوب فلا يمكن رؤية هذا الحوار في شكله المعهود، وبخاصة ما يتبعه من أفعال وردود أفعال الطرفين أثناء تبادل الأدوار؛ ففي النص المكتوب يمكن القول أن المتكلم غائب بذاته حاضر بنصه، أما المتلقي فهو غائب إلى حين القراءة "وعلى قدر هذا المتلقي القارئ – الذي يبدو كأنه غائب – يصبّ الكاتب خطابه"[23]، واضعا في الحسبان غياب هذا المتلقي، ومقدّرا لطبيعته وقدراته في تقبّل دعوى الحجاج أو رفضها. ولهذا يسعى المحاجِج إلى صياغة تدعيماته وحججه وفق هذا الإطار وهذا الموقف، وبذلك يحلّ التدعيم في النص محل الحوار الذي تفترضه المشافهة، فيركز المحاجِج على الحجة المناسبة لدعواه سواء في اختيارها دون بقية الحجج، أو في نوعها أو في موضعها داخل النص، باعتبارها موجَّهة لمتلق قد خَبِرَهُ وقدَّر مكانته وطبيعته، وكذا أنجع السبل للتأثير في معتقداته وأفكاره.

إن التدعيم مكوّن أساسي من مكونات الحجاج، ووسيلة من الوسائل المنطقية الدلالية المعتمدة فيه، كونه موصلا ومجسّدا للنتيجة سواء أكانت

ظاهرة أم مضمرة. ودراسته داخل النص الحجاجي من حيث موضعه في بنية الحجاج، أو من حيث نوعه ومرتبته يمكِّن من تحديد طبيعة الحوار الحجاجي المنتهجة فيه.

1- <u>التدعيم بالشواهد :</u> يتمثّل في استعمال المحاجِج لجملة من الشواهد الخاصة، التي ترتبط بالمحيط الثقافي والاجتماعي والديني الذي يربطه بالمتلقي؛ مثل آيات القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة، أو الأمثال والحكم، أو نقل لصور الواقع المعيش.

وبالنظر إلى نص الشيخ " الإبراهيمي" نجد هذا النوع واردا فيه؛ إذ الأمر متعلق بالطلاق، فلا مناص من اعتماد القرآن الكريم دليلا لذلك، فهو مرجعيته التشريعية الأولى، فالآيتان الواردتان في النص:{ الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ }[24] و { وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ }[25]، تجعلان المتلقي لا يعارض ما يطرحه المحاجِج، وبخاصة إذا كان لهما نفس المعتقد (الإسلام) فتصبح الآية القرآنية بمثابة البرهان القاطع، الذي لا يحتمل الجدل أو الرفض من المتلقي للنتيجة المقصودة، سواء أكانت الآية القرآنية حجة قبل النتيجة أم بعدها.

كما عمد الشيخ " الإبراهيمي" في هذا الصدد إلى نقل صورة الواقع المعيش كدليل على صحة ما ذهب إليه، فعند قوله:" يخرج الرجل إلى السوق (...)" و" يتناقش آخر مع صهره (...)" و" يتنازع اثنان الحديث (...)"، فالشيخ " الإبراهيمي" لا يقصد شخصا معينا بذاته في هذا المقام، وإنما جعل من الأحداث المتكررة في الواقع مثالا للتدليل على دعواه، وليثبت في نفس الوقت صفة

الكثرة والشيوع لظاهرة التساهل في الطلاق لأبسط وأتفه الأسباب، بالإضافة إلى توجيه وتنبيه سلوك المتلقي لحالات مشابهة لتلك المذكورة .

2- التدعيم بالقيمة الحجاجية : تمثّل القيمة الحجاجية الحكم المستفاد من وراء كل حجاج، وترتبط بما يدركه المتلقي لهذا الحجاج، أو مما يطلب منه فعله، ولهذا يسعى المحاجِج إلى اعتماد القيم التي" يكون فيها تمسّك الناس قويا، أو التي تتّسم بالشمولية"[26]، لتوصل إلى نتيجة الحجاج، التي يستنتجها ويستنبطها المتلقي، سواء أكانت صريحة أم ضمنية، لأن غايتها التأثير في معتقداته وأفكاره وسلوكه، ويتجسد هذا التأثير من خلال ردود أفعال المتلقي في مكتسباته الجديدة على مستوى القناعات والمعتقدات أو على مستوى السلوك والتصرفات. والقيمة الحجاجية " مفهوم يستخرج مما يقوله الناس ومما يفعلونه ومما تبنيه المجادلات"[27]، ولها معايير متنوعة تتعلق بالمجتمع من حيث تمسك الناس بها، وبما يظهر في أقوالهم وأفعالهم، وتتعلق بمقاصد الحجاج في إظهار المحاجِج لهذه القيمة أو إخفائها أثناء المحاججة، كما تتعلق أيضا بشخصية المحاجِج ونظرة الناس إليه وقدرته على إقناعهم والتأثير فيهم بما يمتاز به من صفات ومميزات.

وقد برز هذا النوع من التدعيم في نص الشيخ " الإبراهيمي"؛ ففي قوله: "إن من يأخذ فقه الطلاق من هذا المنبع العذب"، تظهر فيه قيمة الحرص والالتزام بالشريعة الإسلامية من قرآن كريم وسُنّة مطهّرة وعمل سلف صالح، وهذا ما يجعل المتلقي حريصا على فهم الدين فهما صحيحا بعيدا عن كل ما يشوبه ويشينه، وقد يدفعه هذا الحرص إلى إعادة النظر فيما يعلم من أمور الدين، فيصبح باحثا سائلا عن كل ما ينفعه في الدارين.

كما تتضح في النص قيمة الاهتمام بالتربية الصحيحة في ظل وجود الوالدين

مجتمعين معا، عند قوله:" فإذا رُبِيَ في حضن أمّه المطلقة شَقِيَ ببعده عن أبيه، وشَقِيَ أبوه بما تغرسه أمّه في نفسه من بغض له وحقد عليه"، فالنتيجة من وراء هذا الحجاج تبرز أن ابن المطلقة شقيّ في كل الأحوال سواء مع أمه أو مع أبيه؛ لأنه إن لزم أحدهما غاب الآخر، وبالتالي يعيش الحرمان والنقص، إضافة إلى ما يدخل أذنه وعقله من كل طرف عن الآخر، فتتزعزع نفسيته ويفقد الثقة في المجتمع، أما إن تربى في حضن والديه المجتمعين كانت هذه التربية حصنا منيعا له من الكثير من أمراض النفس . إن قيمة الاهتمام بالتربية تجعل المتلقي يعمل الفكر في نفسه وفي أولاده وفي أبناء غيره قبل أن يُقْدِم على الطلاق أو يقدم غيره على ذلك ، وإعمال الفكر في موضع كهذا كفيل بأن يُظهِر تصحيحا جذريا في التصرفات لاحقا.

3- التدعيم بالمصداقية : تعدّ المصداقية بعدا حجاجيا، يكمن خلف مقاصد المحاجِج في إقناع المتلقي انطلاقا من ذاته أو ذات غيره، وقدرته على الالتزام بكل ما يرى ويعتقد، وبمقدار تجسيد هذا الالتزام في الواقع العملي. فعلى قدر ما يرى المتلقي هذا الالتزام عند المحاجِج بقدر ما يصدّقه في دعواه، ويكون أقرب إلى التأثر والتطبيق في القناعات أو في التصرفات. والعكس صحيح؛ إذ بقدر ما يغيب تطبيق نتائج الحجاج في واقع المحاجِج، بقدر ما يرفض المتلقي النتيجة – بغض النظر عن مكانة المحاجِج عنده – ولهذا يسعى المحاجِج في تدعيماته إلى استخدام هذا البعد، سواء بطريقة مباشرة يثبت فيها التزامه بما يعتقد ويرى صحته وصوابه في نتائج الحجاج، أو بطريقة غير مباشرة يعمد فيها إلى ذكر طرف آخر ملتزم بهذه النتيجة.

ولقد وظف الشيخ " الإبراهيمي" هذا البعد في نصه، ولكن بدرجة قليلة جداً، وقد يكون السبب راجعا لطبيعة الموضوع، أو أنه أراد أن يبعد ذاته وذات غيره، ليترك المجال للمتلقي ليقيس الأمور على نفسه لا على غيره، وليصل بذلك إلى صحة ما يراه من نتائج.

فعند قوله:" أنا لم أسمع مدة دراستي للفقه في بعض تلك الكتب (...) أبغض الحلال إلى اللـــه الطلاق"، اعتمد طريقة مباشرة للتدعيم تمثّلت في شخصه، لإثبات نتيجة جهل المسلمين لحقائق الدين، واعتمادهم على كتب تظهر الأحكام ولا تظهر الحكمة منها. فانطلق الشيخ " الإبراهيمي" من ذاته وخبرته وإطلاعه الواسع على هذه الكتب وعلى ما ورد فيها، بالإضافة إلى أنه عالم ومصلح مرجعيته القرآن الكريم والسنة النبوية لإثبات ذلك.

إن تنوّع التدعيم في نص الشيخ " الإبراهيمي" يبرز طبيعة ونمط الحوار الحجاجي المعتمد فيه، فقد اعتمد على القرآن الكريم، ثم على القيم الاجتماعية والأخلاقية، ثم على خبرته وعلمه ورسالته الإصلاحية، مما يفترض متلقيا مسلما لهذا الحجاج، لارتباطه بالدين الإسلامي وبتعاليمه. لهذا أخذ النص صورة الحجاج التعليمي، الهادف إلى نشر المعرفة وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وبخاصة المرتبطة بالدين، فالنص موجّه إلى مجتمع ينتمي إليه " الشيخ الإبراهيمي"، الذي سعى طوال حياته إلى تربيته وتوعيته دون ادّخار جهد أو وقت في سبيل ذلك.

(يـــتـــبـــع)

الهوامـــــش و الراجـــــع

(1) البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمـــع وتقـــديم د/أحمـــد طالـــب الإبراهيمـــي، دار الغـــرب الإســـلامي، بيـــروت، لبنان،1997،الطبعة01، الجزء03 (عيون البصائر)، ص297 إلى300.

(2) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة د/ تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1998، الطبعة 01، ص411.

(3) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، المرجع نفسه، ص414.

(4) أ. حبيب أعراب، الحجاج والاســتدلال الحجــاجي" عناصــر استقصــاء نظري"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر 2001 ، العدد 01، المجلد 30، ص98.

(5) أ. حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، عالم الفكر، ص98.

(6) محمد العبد، النص الحجاجي العربي " دراسة في وسائل الإقناع "، مجلــة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، صيف – خريف 2002، العدد 60، ص44 .

(7) ابن منظور الإفريقي المصري(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكــرم)، لسان العرب، دار صادر، لبنان، 1994، الطبعة03، المجلــد 02، ص228 (مادة حجج) .

(8) عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضــوء النظريــة التداوليــة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، الطبعة 01، ص120.

(9) أ. حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، عالم الفكر، ص100.

(10) الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم " سورة النحل نموذجا"، مجلة اللغة والآداب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ديسمبر 1997، العدد 12، ص330 .

(11) محمد العبد، النص الحجاجي العربي ، مجلة فصول ، ص44 .

(12) J.M. ADAM, les textes Types et Prototypes, NATHAN, PARIS, 1992,P104.

(13) د/ جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000، ص106.

(14) الحواس مسعودي، البنية الحجاجية ، مجلة اللغة والآداب، ص330.

(15) أ. حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، عالم الفكر، ص127.

(16) د/ جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، مرجع سابق، ص 109 .

(17) المرجع نفسه، ص 110.

(18) نقلا عن :

– محمد العبد، النص الحجاجي العربي، مجلة فصول، ص 45/44.

و– عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي، مرجع سابق، ص 123/122.

(19) الحواس مسعودي، النصوص الحجاجية، مجلة اللغة والآداب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ديسمبر 1999، العدد 14، ص278.

(20) نقلا عن : الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم ، مجلة اللغة والأدب، ص330.

(21) هذا المبدأ يسميه " جرايس GRAISE " بـ" مبدأ التعاون "، وهو يكفل استمرار الخطاب بين الطرفين من خلال تبادل الأدوار الكلامية بينهما ، وقد

وضع له" جـرايس " أحكامـا فرعيـة تعـرف بـ :" مبـادئ المحادثـة MAXIMES Conversationnelles"، ينظر:

– عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي، مرجع سابق، ص102.

و– روبرت دي بوجراند، النص والخطـاب والإجـراء، مرجـع سـابق، ص496/495 .

(22) د/ جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، مرجع سابق، ص117.

(23) المرجع نفسه، ص117.

(24) سورة البقرة ، الآية رقم : 229 .

(25) سورة البقرة ، الآية رقم : 236 .

(26) محمد العبد، النص الحجاجي العربي، مجلة فصول، ص52.

(27) محمد العبد، المرجع نفسه، ص53.